

البيروني و منهجه في البحث التاريخي

د . سيد رضوان علي

من المعلوم ان أبا الريحان البيروني كان أحد عباقرة العلم في كثير من العلوم البحتة والتطبيقية كالفلك والرياضيات والجغرافيا والطبيعة وغيرها ، ولكن هل كان البيروني مؤرخا وهل له منهج تاريخي ؟ حتى نستفيد منه في اعادة كتابة تاريخ الامة العربية ، هذا ما سأحاول أن أجيب عليه في هذا البحث المتواضع .

الحقيقة أن شهرته كعالم فلكي رياضي طبيعي طغت على شهرته كمؤرخ ، ومن ثم خلت الكتب التي تتحدث عن المؤرخين عن ذكره قديما وحديثا (١) ولم يدرك أهميته كمؤرخ الا القلائل من الناس ، ومرجع ذلك في اعتقادي أمران اثنان : الفكرة الشائعة عن التاريخ بأنه أخبار الدول والملوك والفتوح أو التاريخ السياسي بتعبير آخر، الأمر الثاني عدم وصول بعض كتبه التاريخية الينا وعدم اشتهار ما وصل منها وطبع في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الا لدى الخاصة مثل كتابيه العظيمين : ,,الآثار الباقية عن القرون الخالية,, و ,,تحقيق ماللهند من مقولة ,, . ثم وصفهما من قبل بعض الباحثين وصفا ضيقا أى في نطاق التقاويم وذكر الأعياد والعقائد والعلوم .

ولكن اذا سلمنا بأن مدلول التاريخ ليس مجرد تاريخ سياسي أو أخبار السلاطين والملوك وانجازاتهم بل هو تتبع لحياة الشعوب في نشاطاتها المختلفة الفكرية والعملية من عادات وتقاليد ، وثقافة وعلم ،

وديانة و شريعة فان المرء الذى ينظر فى هذين الكتابين المذكورين لا يجد مناصا من القول بأن البيرونى كان مؤرخا ، بل مؤرخا ناقدا نافذ البصيرة ، نهج منهجا جديدا فى البحث التاريخى فى عصره ، بل بعد عصره الى ظهور ابن خلدون .

هذا وقد ألف البيرونى كتبا تاريخية أخرى بالمعنى المتعارف المشهور منها مثل ,,أخبار القرامطة والمبيضة (٢) ,, و ,,المسامرة فى أخبار خوارزم,, والذان لم يعثر عليهما حتى الان حسب معرفتى ، كما ألف كتابا بعنوان ,,تنقيح التواريخ,, والذى ضاع فيما ضاع من كتبه الكثيرة أصولا و مسودات حسب تصريحه فى فهرست كتبه، وذلك بسبب تنقلاته الكثيرة ، والتقلبات السياسية التى عانى منها البيرونى. ولعل هذا الأخير كان من أهم كتبه فى موضوع النقد التاريخى كما يظهر من اسمه .

ولعل المستشرق فرانز روزنتال كان بعد سخاؤ أول من استأنس ببعض آرائه فى كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، كما كان الدكتور على الشابى أول باحث عربى كتب عن المنهج التاريخى عند البيرونى فى أطروحته للدكتوراه بعنوان ,,الأدب الفارسى فى العهد الغزنونى (٣) ,,

اذن فالبيرونى بجانب كونه عالما فذا فى العلوم البحتة والتطبيقية مؤرخ وصاحب منهج فى البحث التاريخى كما سنتبينه عما قليل .
عصره وحياته الشخصية :

عاش البيرونى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الرابع الهجرى والعقود الأربعة الأولى من القرن الخامس الهجرى، وهو عصر التفكك السياسى واضمحلال القوة السياسية المركزية للخلافة العباسية فى بغداد، ولكنه بالرغم من ذلك كانت فترة ازدهار علمى حيث أن الدويلات التى قامت فى أطراف الخلافة العباسية شرقا و غربا ظلت

تحمل تلك الرسالة الحضارية العلمية التي كانت من مميزات الخلافة العباسية منذ نشأتها . بل شهدت هذه الفترة ظهور قوة سياسية جديدة فى منطقة جديدة فى الشرق أى الدولة الغزنوية وفتوحها فى داخل الهند . واحتك البيرونى بأمرأء بعض هذه الدول الصغيرة والكبيرة و شاهد التقلبات السياسية ، وتعرض لحياة التشرد وعدم الاستقرار أحيانا ولكنه ظل يؤدى رسالته العلمية بهدؤ وثبات ، وتفان فى العلم غريب .

وشهدت هذه الفترة ظهور ثلاثة من عباقرة العلم بالنسبة لتاريخ العلم العالمى : ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى ، ولكن سُمى هذا العصر بعصر البيرونى من قبل مؤرخ العلوم الشهير جورج سارتون (٢٤) لانه أكبر شخصية علمية عاشت فى ذلك الوقت .

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) خارج مدينة خوارزم (المعروفة الان بخيوة) فى ضاحية من ضواحيها، ومن ثم اشتهر بالبيرونى ويرون معناه بالفارسية (خارج) . ولاصحة لما جاء فى بعض الكتب كطبقات الأطباء لابن أبى اصبيحة أن «بيرون» هذه مدينة فى السند . ويقرر البحث الحديث انها كانت فى اقليم خوارزم . وتقديرا لمكانة البيرونى العلمية أطلقت حكومة جمهورية از بكستان السوفيتية اسم مدينة البيرونى (٥) على تلك العاصمة القديمة لخوارزم ، والتي كانت قد خربت آنذاك .

وتوفى البيرونى فى مدينة ، غزنة (٦) فى رجب ٤٤٠ هـ (٧) بعد حياة دامت سبعا وسبعين سنة . وتنقسم حياة البيرونى الى فترتين رئيسيتين : الفترة الاولى من ولادته حتى ٤٠٨ هـ فى اقليم خوارزم و جرجان ، والفترة الثانية من انتقاله الى غزنة فى صحبة السلطان محمود الغزنوى فى ٤٠٨ الى حين وفاته بها . وهكذا فنشأة البيرونى كانت فى خوارزم وليست فى غزنة كما ذكر فليب حتى فى

كتابه تاريخ العرب المطول (ص ٤٦٠) . ولا يعرف عن نشأته وأساتذته الا قليل جدا ، ويتأكد من بعض آيائه الشعرية انه كان من أسرة عادية جدا ، ولعله حرم من والديه فى فترة مبكرة من حياته، وكان مائلا الى العلم ، محبا للتعلم منذ الصغر كما حدث بنفسه وتعلم اللغة اليونانية من عالم يونانى جاء الى بلاده بطريقة مباشرة أى بالسؤال عن أسماء النباتات والأشياء التى كان يحضرها له (٨) ، كما تعلم العلوم الكثيرة من أبى نصر منصور بن على بن عراق و اعترف بذلك فى احدى قصائده :

وآل عراق قد غذونى بدرهم و منصور منهم قد تولّى غراسيا (٩)
 وكان يتمتع بذكاء فطرى خارق وموهبة عظيمة فى الفهم فنبغ مبكرا ، وبدأ يقوم بأعمال الرصد فى موطنه الأول وعمره ١٨ سنة ثم فى جرجانية (أوركانيج حاليا) ونتيجة لهذا النبوغ المبكر حرص أمراء تلك المنطقة على دعوته اليهم فعاش فى كنف امارة آل عراق أولا ، ثم بعد سقوطها انتقل الى امارة آل المامون بخوارزم أيضا، حيث ظل يتابع أعماله وتجاربه فى الرصد، وفى حوالى ٣٨٩ هـ انتقل الى مدينة جرجان بدعوة من أميرها العالم الأديب شمس المعالى قابوس بن وشمكير حيث ألف اول كتبه ,,الآثار الباقية,, فى ٣٩٠ هـ باسمه، ولكنه بسبب شراسة أخلاقه وخلافه معه عاد فى ٤٠٠ هـ الى خوارزم ، بعد فترة من حياة التشرد، حيث أكرمه امير آل المامون ابو العباس المأمون بن المأمون غاية اكرام وجعله مستشارا له، ثم بعد سقوط هذه الامارة اثر هجوم السلطان محمود الغزنوى و حرصه على جمع العلماء فى بلاطه انتقل الى غزنة فى ٤٠٧ هـ .

وفى هذه الفترة الثانية ذهب البيرونى عدة مرات الى الهند فى صحبة السلطان محمود وبقي بها طويلا (١٠) وجال فى كثير من بقاعها

البنجاب والسند وكشمير وحتى نيبال ، حيث تعلم اللغة السنسكريتية العلمية وعددا من اللغات واللهجات المحلية و درس علوم الهند ومجتمعها، وعلم الهندو الفلسفة اليونانية و علوم اليونان الأخرى وكان من نتاج رحلاته الكتاب المعروف ،،تحقيق ماللهند من مقولة،،. وبعد وفاة السلطان محمود استقر في ٤٢١ هـ في غزنة يؤلف ويقوم بتجاربه في الرصد وصنع بعض الآلات العلمية ، ومنها آلة لمعرفة القبلة وأخرى لمعرفة ضغط الماء والهواء.

وتحدث البيروني عن اتصالاته بالأمرء المذكورين في قصيدة ذكر يا قوت قطعة منها في الارشاد، وطبيعة علاقاتهم معه (١١) ، وأولها :

مضى أكثر الايام في ظل نعمة على رتب فيها علوت الكراسيا

وقبل الانتقال الى الكلام عن مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي ينبغي الوقوف عند نقطتين من سيرة البيروني، وهما معتقداته الدينية ونظرته القومية حيث أن بعض العلماء من الغرب و الشرق وقفوا موقفا معاديا من البيروني حولهما، وتجنوا على الحقيقة واتهموا البيروني جزافا اتهامات باطلة، ونخص بالذكر منهم المستشرق الروسي المشهور بارتولد في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية حيث اتهم البيروني بعصبيته للقومية الايرانية وميله الى المانوية ، واتباعه المذهب الشيعي، وتابعه في ذلك فيليب حتى في تاريخه في القول بتشيعه ، وزاد انه كان يميل الى اللا أدريّة وافتنن بفلسفة الهندو او الهندوس على الاصح .

ويستغرب المرء من هذه الاتهامات الباطلة بزاء أقواله المبشوة في مختلف كتبه التي تدلّ على تدينه الصحيح واتباعه للمذهب السني بل وانتقاده لمذهب ماني الايراني، وفلسفة الهند، وحبّه للثقافة العربية، وغلوّه في هذا الحب الى حد الاسراف . ومرجع ذلك كما يبدو عدم

امعان النظر فى مؤلفاته أو محاولة خلق الانشقاق بين الصفوف
الاسلامية وبذر بذور الكراهية والبغضاء بين المسلمين وهو خط دأب
على السير فيه كثير من المستشرقين وأتباعهم.
ونرد هذه الاتهامات من كلام البيرونى نفسه . فهو يقول فى كتاب
,,الصيدنة فى الطب ,, بصراحة لاغموض فيها: ديننا والدولة العربية
توءمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية .
وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة الجيل والديلم فى لباس
الدولة جلايب العجمة ، فلم تتفق لهم فى المراد سوق، ومادام
الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا، وتقام الصلوات بالقرآن العربى
المبين خلف الأئمة صفا صفا، ويخطب لهم فى الجوامع بالصلاح،
كانوا لليدين والقم و جبل الاسلام غير منقسم، وحصنه غير منتمل
.. (١٢) .

فهل بعد هذا يصح اتهامه بالمانوية والعصية الايرانية؟
ثم هو القائل فى كلام منطقى عند المقارنة بين اللغة العربية
والفارسية ثم فى اندفاع وتحمس بالغ للعربية : ,,فأنا فى كل واحدة
دخيل، ولها متكلف، والهجو بالعربية أحب الىّ من المدح بالفارسية ،
وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسى قد
ذهب رونقه ، وكسف باله، واسودّ وجهه، وزال الانتفاع به اذ لاتصلح
هذه اللغة الا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية (١٣) .,,

بل الحق أن البيرونى كان عربيا بثقافته ودينه ونظرته الى الحياة
رغم انتمائه الى الجنس التركى كغيره الكثيرين من أعلام العرب
كالفارابى والزمخشرى و محمد ابن موسى الخوارزمى وابى بكر
الخوارزمى وغيرهم ولم يفتخر بجنسيته التركيه قط، صحيح انه انتقد
قتيبة بن مسلم فى كتابه ,,الآثار الباقية,, لتدميره مدينة خوارزم
واحراق الكتب فيها، ولكنه فى هذا الانتقاد كان مدفوعا بحبه للعرمان

وللعلم أيا كان وأينما كان . ولعل بارتولد انخدع ببحث البيروني عن كتاب ماني ،،سفر الأ سرار، أكثر من أربعين عاما، ولكن كان ذلك تلبية لرغبته الجامعة في الاطلاع على تراث الأمم الأجنبية من الفرس واليهود واليونان والهنود حسب منهجه في دراساته المقارنة في التاريخ والأديان والأفكار، كأى باحث حق نزيه لكى يصل من تلك المقارنة الى درجة الايقان الكامل فى معتقداته وأفكاره عن اقتناع عقلى منطقى، الأمر الذى يتجلى بوضوح فى كتابيه الجليلين ،،الآثار الباقية، و ،،كتاب الهند، فى مختلف فصولهما .

ولقد حكم بعد حصوله على كتاب ،،سفر الأ سرار، لماني نتيجة بحثه المتواصل له وقراءته اياه قائلا: وجدت الله صادقا فى قوله : ،،ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور،،(الآية الكريمة) ، ثم اختصرت ما فى تلك السفر من الهذيان البحث والهجر المحض ليطالعهما مأووف بأفتى، وسيجعل الشفاء منها كفعلى (١٤) ،،.

وتبرأ البيروني من أبى بكر الرازى المغرم بكتب ماني والمنكر للنبوات رغم احترامه لعلمه (١٥) . وانتقده انتقادا مُرا . هذا ويلاحظ من قرأ كتب البيروني أنه يكثر من ايراد الآيات القرآنية فيها حتى فى الكتب التى لا يتصور المرء فيها وجود مثل هذه الآيات ككتاب ،،الجماهر فى معرفة الجواهر، والآثار الباقية. ولا يتسع المجال لضرب الأمثلة هنا .

قال فى الجماهر ،،وفى أخبار الفرس التى لاتخلو من زيادتهم تفخيم امر الأ كاسرة وتفضيل ملكهم والمملكة التى لهم، ولا يقول هذا الكلام من يتعصب لقوميته ثم هو الذى ألف بحثا بعنوان ،،رأى العرب فى مراتب العدد أفضل من رأى الهند، فهل يقال عن مثل هذا انه افتتن بالعلوم الهندية .

اما بالنسبة لاتهامه بالتشيع فيبطل هذا الاتهام من أقوال البيروني في ,,الآثار الباقية,, حيث رفض رد الشمس لسيدنا على حتى يصلى صلاة العصر بقوله: ,,ومثل ذلك فى ردها يحكيه بُلّه الشيعة فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب» (١٦) وكذلك انكر على الشيعة فى موضع آخر من هذا الكتاب دعواهم فى معرفة الهلال بطريقة حسائية خاصة سرّية قائلاً : ,,وعلى ما ذكرنا عملت الفرقة المدعية لبواطن الأمور المنتحلة لتشييع الآل، زعمت أنه من أسرار النبوة,,. ومثل هذا الكلام لا يصدر عن رجل شيعى . قال هذا الكلام، وهو فى بلاط قابوس بن وشمكير فى جرجان ، وأما بعد انتقاله الى غزنة الى بلاط السلطان محمود الغزنوى المتعصب لأهل السنة فلا يتصور أن يصحبه فى مجالسه وأسفاره رجل شيعى .

كان البيرونى بعيدا كل البعد عن التعصب المذهبى، وذكر قصة طريقة فى كتابه ,,الجماهر فى معرفة الجواهر,, عند الكلام على نوعين من الحجر: الخماهن والكرک، احدهما أبيض اللون والآخر أسود فقال: ,,ان الشيعة كانت تتختم بأسودها والنواصب بأبيضها مكان العقيدة والمذهب، وكنت أجمع بين هذين الفصين فى زوج خاتم كباداً للفريقين معا (١٧) ..»

هذا وقد قرر الأستاذ المحقق سالم كرنكو الألمانى أيضاً أنه كان من أهل السنة (١٨) .

مكانته العلمية ومنهجه فى البحث التاريخى :

أطلق العلماء القدماء لقب ,,الاستاذ الرئيس,, على البيرونى كما عرفه الأوربيون وهى ترجمة لنفس اللقب. ويجمع المختصون فى تاريخ العلوم قديما وحديثا على نبوغه وعبقريته فى عدد من العلوم الفلكية والرياضية والطبيعية والجغرافيا وغيرها، وسبق الكلام ان جورج سارتون مؤرخ العلم الشهير سمى

العصر الذى عاش فيه مؤلفنا ،،عصر البيرونى،، رغم وجود علماء أفذاذ آخرين فى نفس العصر، أما سخاؤ ناشر كتبه الأول فى القرن التاسع عشر فقد اعتبره أعظم عقلية عرفها التاريخ وظاهرة علمية فى الحضارة الاسلامية ولا مجال لسرد آرائهم هنا، والقارى يجد هذه الآراء مبنوثة فى الكتب الكثيرة عن تاريخ العلوم فى اللغة العربية واللغات الأجنبية، مثل كتب قدرى طوقان وكتاب ألدوميلى، وعلم الفلك عند المسلمين لنلينو و تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشوفسكى وتاريخ الرياضيات لكاجورى وغيرها، وجمع الكثير من هذه الآراء الأستاذ على أحمد الشحات فى كتابه الحديث عن حياة البيرونى (١٩)، وهو كتاب قيم فيما يتصل بشرح بعض نظرياته العلمية ووصف مؤلفاته المطبوعة، وألف البيرونى فى عشرة علوم حسب كلامه فى فهرس كتبه، والقليل يعرفون أنه ألف حتى فى الشعر العربى مثل كتاب مختار شعر أبى تمام ، وفى أدب التسلية من الروايات الشعبية والتاريخية أو مايسميه هو ،،مايجرى مجرى الاحماض، .

وهكذا فكان البيرونى غزير الانتاج متنوعه، وظل يؤلف طوال نصف قرن من ٣٩٠ هـ الى حين وفاته . وشاء حظ التاريخ أن يكون أول كتبه من ناحية التأليف والطبع والترجمة الى الانكليزية كتابا فى موضوع تاريخى، اقصد ،،الآثار الباقية عن القرون الخالية،، وهو أحد مؤلفاته الثلاثة الهامة : الآخران ،،تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل او مردولة،، المعروف ايضا بكتاب الهند أو تاريخ الهند (٢٠) . ونشر أدور و سخاؤ الألمانى هذين الكتابين وترجمهما الى اللغة الانكليزية، الأولى فى ١٨٧٨ م ، والثانى فى ١٨٨٧ م وترجمهما الى الانكليزية بعد نشرهما مباشرة ، وله الفضل فى تعريف هذا العبقري وانتاجه فى العلوم الانسانية الى العالم فى العصر الحديث، أما الثالث فهو القانون المسعودى، ألفه البيرونى باسم

السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، وهو فى رأى كارلو نللىنو المستشرق المتخصص فى علوم الفلك اكبر وأدق موسوعة فى علوم الفلك والجغرافية الرياضية . و نشرته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند) فى ثلاثة مجلدات .

ويربو عدد مؤلفات البيرونى من الكتب الكبيرة والرسائل الصغيرة أو الابحاث العلمية على ١٨٠ كتابا ورسالة والفهرس الذى وضعه البيرونى نفسه لمؤلفاته وأبحاثه فى ٤٢٧ هـ يشمل ١٠٣ كتابا كما ذكر ثمانية كتب أخرى وهو فى سبيل اتمامها من مسوداتها . (٢١) وكان من دقته العلمية أنه ذكر عدد أوراق الكثير من هذه الكتب والرسائل، الأمر الذى يفيد الباحث فى تقدير انتاجه العلمى تقديرا صحيحا، فمنها مثلا كتاب الوساطة بين الخوارزمى وأبى الحسن الأ هوازى الفلكى فى ٦٠٠ ورقة أى ١٢٠٠ صفحة ، و كتاب جمع الجوامع فى شرح السند هند أو الرياضيات الهندية فى ٥٠٠ ورقة ، ورسالة فى تقاسيم الأقاليم ٢٠ ورقة ، وايضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة ٢٥ ورقة ، وتسطيع الصور وتبطيع الكور فى ١٠ ورقات و اضافة الى ما ذكرنا نشرت مالا يقل عن عشرة كتب أخرى فى الموضوعات العلمية ، وترجم بعضها الى اللغات الأوربية .

وتنافست الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية فى تكريم البيرونى باحياء ذكراه بطرق شتى من اصدار مجلدات تذكارية ، واقامة الندوات العلمية فى الهند وتركيا وروسيا السوفيتية وأفغانستان وباكستان . وآخرها المؤتمر العالمى الذى عقد فى كراتشى فى سنة ١٩٧٣ م بمناسبة عيد ميلاده الألفى، كما أطلقت روسيا السوفيتية اسمه على جامعة حديثة فى طاشقند . ونصب تمثال له فى المتحف الجيولوجى بجامعة موسكو، لأن البيرونى ولد، وعاش فترة طويلة من

الزمن فى المناطق التى تخضع حالياً لروسيا كازبكستان وتركمانستان أو بلاد ماوراء النهر القديمة .

ومنهج البيرونى فى البحث التاريخى كمنهجه فى البحث العلمى، وهو عين المنهج الذى يسير عليه البحث العلمى فى العصر الحديث ، أى الاحتكام الى العقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد والمقارنة . وأصاب الدكتور على الشابى التونسى فى قوله : ,, بأنه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة لاتقبل الرفض أو التعديل الا بقدر ماتسمح به الحقائق العلمية (٢٢) ... واذا قارنا منهجه بمنهج الطبرى والمسعودى ومسكويه وغيرهم من المؤرخين المعروفين أدركنا انهم لم يوفقوا الى المنهج المتكامل لأن ثقافتهم كانت مبنية على العلوم النقلية فقط، بينما وفق البيرونى الى ذلك لمعرفة الشاملة ويقظته العقلية وحسه النقدى الدقيق فى معالجة كثير من قضايا التاريخ واستكناه عللها والربط بينها .

وأوضح البيرونى بعض ملامح منهجه فى مقدمة الآثار الباقية بقوله:
 « ان أقرب الأسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة الأخبار الأمم السالفة وأبناء القرون الماضية، لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم، ولا سبيل الى التوصل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل واصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك، وتصيير ما هم فيه أساسا بينى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى اثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك (٢٣) .. »

وبعد التأكيد على منهجه في البحث التاريخي هذا من وجوب الرجوع الى المصادر الأصلية والاخذ بالأخبار والآراء بعد المقارنة بموضوعية ونزاهة دون الوقوع تحت وطأة التعصب والافتخار الشخصي أو القومي، يؤكد صعوبة هذا المنهج قائلاً: *على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول إليه، لكثرة الأباطيل التي تدخل جمل الأخبار و الأحاديث، ولكنه يقرر في نفس الوقت بعقل منطقي علمي عدم رفض الأخبار لمجرد هذا السبب العارض بقوله:

*ولست كلها داخلة في حد الامتناع، فتميز و تهذب، لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر، بل قد يشاهد و شوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكي مثلها عن زمان بعيد عهدنا به، ثبتنا الحكم على امتناعها (٢٤) .

ولقد طبق البيروني منهجه هذا بدقة في جميع كتبه التاريخية والعلمية وخاصة في الآثار و كتاب الهند من حيث الرجوع الى المصادر الاصلية في تواريخ مختلف الشعوب، والنقد التحليلي والمقارنة ونجد في كتابه الآثار الباقية ذكر عشرات الكتب من تراث الأمم المختلفة كالمجوس والمانوية واليهود والمسيحيين والسريان والأقباط واليونان والعرب وكذلك في كتابه ،،تحقيق ماللهند من مقولة،، . ويمكن استخراج تواريخ هذه الشعوب الاجتماعية من الأعياد والمواسم الموجودة الباقية التي ذكرها البيروني . وأثبت بعد المقارنات العديدة والاستقصاء ما أمكن جد اول السلالات الحاكمة في ايران قبل الاسلام وكذلك الملوك الكلدانيين واليونان والروم والبيزنطيين ، وناقش في أصول بعض السلالات الاسلامية الحاكمة في عهده من بني بويه والزياريين والفاطميين ، وأثبت عدم صحة نسبة بني بويه الى الساسانيين ونسبة الفاطميين الى آل الرسول عليه الصلاة

والسلام، ولم يمنعه الخوف من بطش قابوس بن وشكمير الذى ألف له كتاب الآثار أن ينكر صحة نسبه الى ,,أصول السيادة (٢٥) ...
 كما انه وقف من قضايا التاريخ القديم فى المصادر الاسلامية المذكورة موقفاً جديداً اثباتاً ونفيًا، ومنها مثلاً قضية هوية ذى القرنين المذكور فى القرآن الكريم ، وهو عند معظم المؤرخين والمفسرين كالطبرى والمسعودى وابى حنيفة الدينورى والقرطبى والكتاب والجغرافيين كابن خرداذبة و قدامة بعد جعفر وابن قتيبه وغيرهم الاسكندر المقدونى بينما اعتبره علماء اليمن القدامى كمحمد بن حبيب فى كتابه ,,المحبر,, والهمدانى فى ,,الاكليل,, أحد ملوك اليمن وحدوده بمصعب الهمال الحميرى . والبيرونى بعد استقصاء هذه الأقوال وغيرها مال الى القول بانه أبوكرب شمر يرعش، واحتج بظاهر اللقب الذى يكثر فى ملوك اليمن المعروفين بالأذواء (٢٦) مثل ذو نواس ، ذويزن وغيرهما .

ورفض كلام ابن خرداذبة، بعد مناقشة علمية من النقد الداخلى، فى كون سد ياجوج وماجوج فى منطقة بحر قزوين الغربية .

وبحث فى موضوع التاريخ الهجرى فقرر بعد المقارنة والنقاش لأقوال مختلفة أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى الثامن من ربيع الأول، ولا يجوز كونها فى الثانى والثانى عشر من هذا الشهر لعدم وقوع يوم الاثنين من الناحية الحسابية الا فى ذلك التاريخ، وكذلك رفض وقوع عاشوراء عيد اليهود فى العاشر من المحرم، والأخبار المروية فى صوم النبى عليه السلام فى هذا اليوم لانه يوم نجاته موسى وبني اسرائيل من الغرق وذلك بطريقة رياضية عجيبة مقنعة ، واعتبر الروايات الواردة فى هذا الموضوع من عمل محدثى العوام أو مسالمة أهل الكتاب (٢٧) .

وهكذا أخضع تواريخ الأحداث لعملية رياضية للتثبيت منها . وما أحوجنا الى مثل هذا الأسلوب العلمى الرياضى فى كثير من قضايا تاريخية .

ومن ناحية أخرى طبق أصول البحث فى الطبيعة فى بعض قضايا تاريخية أخرى ولم يرفضها لمجرد غرابتها، ومنها قضية الأعمار الطويلة فى الأمم السالفة ، وماورد منها فى القرآن الكريم، مثل عمر نوح عليه السلام فاثبت صحة عمره الطويل الوارد فى القرآن بطريقة علمية بحثة دون الاعتماد على الروايات والتفاسير، واعتبر أولئك الذين يرفضون مثل هذه القضايا من أغمار الحشوية ونوكى الدهرية . ولا يتسع المجال هنا ليراد مناقشته فليراجع كتابه الآثار الباقية (ص ٧٨ - ٨٠) .

كما أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الأجنبية فى البحث العلمى عامة والبحث التاريخى خاصة فتعلم عدداً من اللغات كاليونانية والعبرية والسريانية بجانب اللغة التركية والفارسية والعربية . ويذكر أسماء الاحجار الكريمة فى هذه اللغات المختلفة فى كتابه ,,الجواهر فى معرفة الجواهر,, وهو الوحيد من بين علماء العرب والاسلام فى عصره وقبل عصره من تعلم اللغة السنسكريتية واللغات الهندية الأخرى لدراسة آداب وتقاليد وعلوم الهند، ليقدم لنا دراسة فذة رائعة فى الموضوع فى كتابه الجليل ,,تحقيق ماللهند من مقولة ,, ثم يترجم العديد من الكتب السنسكريتية ، ويعيد ترجمة كتاب سدهانتا أو السند هند المعروف لدى العرب قديما .

وهو فى كتابه هذا لم يكن مجرد ناقل كما صور البعض، ولامفتتنا بعلوم الهند ، بل كان مؤرخا عالما ناقدا بصيرا مستقل التفكير . وهو القائل بمناسبة ذكر آراء علماء الهند فى الأرصاد فى كتابه تحديد نهايات الأماكن ,,ويجب أن أعير هذا الكلام بجميع وجوهه ، فانى لا أبى قبول

وانتقد منهج علماء الهند قائلًا: «ومن طالع أعمالهم وجدها من البعد عن التحقيق بحيث لا يثق في أرواحهم بادعاء تدقيق، ولكن القوم بسبب نزوح ديارهم وشدة كتمانهم، وضمنهم على الشيء النزر يراحون رائحته، واعتقاد العامة فيهم الحكمة مع خلوهم عنها، وسهولة تلك الأعمال بالقياس إلى المحققة، قد كثر متعصبوهم الذين لا يلتفتون إلى عيان ولا يكثرثون ببرهان، ومنهم محمد بن علي المكي على ما ذكر في المدخل إلى أحكام النجوم» (٢٩).

وفضل البيروني منهج علماء اليونان في البحث العلمي على منهج الهند، في آخر كتاب الهند، وذكر أيضا سبب تأليف كتابه هذا قائلًا: «فقليل منهم من يشتغل بالتحقيق اشتغال الطبيعيين من اليونانيين، بالبحث عنها وعن مائة الآثار العلوية، وانهم لا يخلون بكلام القوام بملتهم، ونستغفر الله في الحكايات إلا عن حق، ونستوثق للاعتصام بما يرضيه، ونستر شدة إلى الوقوف على الباطل لتتقيه» (٣٠).

واختم كلامي بنصيحة هذا العالم العبقري و المؤرخ الحق، وجهها إلى الفلكيين ولكنها نبراس لكل باحث يعمل في أي حقل علمي، حيث قال: «ويجب أن يتيقظ الراصد ويُدِيم فلي أعماله، واتهام نفسه، ويقلل العجب بها، ويزيد في الاجتهاد ولايسأم» (٣١).
والله ولي التوفيق»

المراجع

- (١) انظر مثلا التّوبخ لمن ذم التاريخ للسغاوي، ودراسات عن المؤرخين العرب لمارجوليت ترجمة د. جميع نصار، ومصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه للسيدة اسماعيل كاشف، ومنهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان.
- (٢) البيروني، الآثار الباقية ص ٢١١، ٢١٣.
- (٣) طبع في تونس عام ١٩٦٥م.
- (٤) المدخل إلى تاريخ العلم بالانجليزية

- (٥) دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف حكمت نجيب عبدالرحمن (الموصل ١٨٨) ص ٢٢٠
- (٦) وأخطأ قدرى طوقان فى ذكر وفاته بمدينة خوارزم فى كتابه العلوم عند العرب فى ترجمة البيرونى ص ١٧٢
- (٧) حسب رواية تلميذه وخادمه الخاص أبى الفضل السرخسى صاحب كتاب جوامع التاريخ، سخاؤ فى مقدمة الآثار . والبعض يرى أنه توفى فى عام ٤٤ هـ
- (٨) على احمد الشحات :أبو الريحان البيرونى ص ٧٣
- (٩) ياقوت، معجم الأدباء، ٦ - ٣١١
- (١٠) ولكن ليس أربعين سنة كما تذكر كثير من الكتب الحديثة والقديمة . وهو خطأ ظاهر من ناحية التاريخ .
- (١١) الجزء السادس، ص ٣١٢
- (١٢) نقله على أحمد الشحات فى كتابه أبو الريحان البيرونى ص ٧٤
- (١٣) نقله كراتشوفسكى، الأدب الجغرافى ص ٢٥١ وانظر ايضا على الشابى المصدر المذكور ص ٣٣٨ . وانظر كتاب الصيدنة بتحقيق الدكتور رانا احسان الهى كراتشى ١٩٧٣ .
- (١٤) مقدمة الآثار الباقية، رسالة فى فهرست كتب محمد بن زكريا الرازى، صفحة ٣٩ بالرقم اللاتينى
- (١٥) نفس المصدر فى نفس الصفحة .
- (١٦) نفس المصدر السابق ص ٢٤٨ .
- (١٧) الجماهر ص ٢١٥ .
- (١٨) الجماهر، خاتمة الطبع ص ٣
- (١٩) البيرونى حياته ومؤلفاته ، ص ٢٢٨ - ٢٣١
- (٢٠) وأخطأ خيرالدين الزركلى فى اعتباره كتابا مستقلا عن ,,تحقيق ماللهند,, كما ذكر من كتبه تاريخ الأمم الشرقية وليس له .
- (٢١) انظر هذا الفهرس فى مقدمة الآثار الباقية بقلم سخاؤ .
- (٢٢) المصدر السابق الذكر ص ٣٢٤ .
- (٢٣) الآثار الباقية ص ٤ .
- (٢٤) نفس المصدر ص ٥ .
- (٢٥) انظر، الآثار الباقية ص ٣٨ و ٣٩ .
- (٢٦) نفس المصدر ص ٤٠ - ٤١، ويعتبره المرحوم مولانا أبو الكلام آزاد فى تفسيره للقرآن الكريم باسم ترجمان القرآن الملك الايرانى القديم كوروش أوساترس، وكذلك رأى مولانا ابي الأعلى المودودى فى تفسيره تفهيم القرآن بيمض التحفظ .
- (٢٧) المصدر السابق ذكره ص ٣٣٠ .
- (٢٨) تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن، ص ٨٣ .
- (٢٩) نفس المصدر فى نفس المكان .
- (٣٠) تحقيق ماللهند من مقولة ، ص ٥٤٧ .
- (٣١) تحديد نهايات الأماكن ، ص ٨٠ .

مراجع البحث

- ١- الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادورد سخاو
 - ٢- تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل او مرذولة، حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م
 - ٣- تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى - انقرة ١٩٦٢ م
 - ٤- الجماهر فى معرفة الجواهر ، تحقيق سالم كرنكو ، حيدر آباد، الهند
 - ٥) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، طبعة رمزى رايت المصورة مع الترجمة الانجليزية ١٩٣٤ م
 - ٦- كتاب الصيدنة فى الطب ، بتحقيق الدكتور رانا احسان الهى : كراتشى ١٩٧٣ .
- (ب) الكتب الاخرى:

- السخاوى : الضوء اللامع .
 ابن أبى اصبيحة : عيون الأنباء فى طبقات الاطباء
 ياقوت : ارشاد الاديب طبعة مارجوليوت .
 محمد بن حبيب : المحبر ، حيدر آباد - الهند
 حمزة الأصفهاني : تاريخ سنى ملوك الارض - بيروت ١٩٦١ م
 الطبرى : تاريخ الطبرى . طبعة دار المعارف ، القاهرة .
 المسعودى : مروج الذهب ، تحقيق محى الدين عبدالحميد
 خير الدين الزركلى : الاعلام (١٠) أجزاء
 نلينيو : علم الفلك عند المسلمين ، - روما ١٩١١ م
 كراتشوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم
 فرائز روز نتال: علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلى
 قدرى طوقان : العلوم عند العرب
 .. : ترات العرب العلمى فى الفلك والرياضيات
 .. : مقام العقل عند العرب
 بارتولد : الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر .
 فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ترجمة جرجى و جبور
 الشحاته على أحمد: ابو الريحان البيرونى ، حياته ومؤلفاته ، القاهرة ١٩٦٨ م
 على الشايبى : الأدب الفارسى فى المعهد الفرنوى تونس ١٩٦٥ م
 حكمت نجيب هاشم : دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب . الموصل ١٩٨٧ م

المراجع الاجنبية

- Ameer Ali, History of Saracens. London 1961.
- Bernard Lewis and P.M. Holt Historians of the Middle East London. 1964.
- Brockelman C and Wiedemann, Article "al-Biruni" in *Encyclopedia of Islam*.
- Bosworth, C.E. *The Ghaznawids*, 2nd ed. Beirut. 1973.
- Nasr, Hussein, *Islamic Science*. London 1976.
- Elgood, C. 'Islamic Science, in Legacy of Persia ed. by A.J. Arbery. London.
- Savory, R.M. *Islamic Civilization*. London.
- Savory, R.M. Article: 'Land of the Lion and the Sun' in *The World of Islam*, ed. by Bernard Lewis. London 1976.
- Sa'id, Hakim M. (ed). *Al-Biruni, Commemorative Volume* Karachi, 1973.

